حولية كلية الآداب والعلوم الاجتماعية

العدد الثاني عشر

١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م

نظرية ريبيرا
حول عروبة الأندلس

الدكتور عدنان مصطفى
مدرس بقسم اللغة العربية

مقدمة :

إنه موضوع قد يثير استغرابنا للوهلة الأولى ، إذ من يشك في صحة حقيقة الانتماء العربي لأهل الأندلس . وهم إذا لم يكونوا عرباً في أنسابهم ، فماذا نعتبرهم إذن . . ؟

المستشرقون الإسبان ، ابتداءً بـ «خوليان ريبيرا» وحتى آخر متخصص في مجال الدراسات الإسلامية أو السامية ، يجعلون الأندلسيين إسباناً . وأنه ليس يذكّرهم بالأصل العربي البعيد الذي انحدروا منه سوى عاطفتهم الدينية التي تجعلهم ، بين الحين والآخر ، يولون وجوههم شطر بيت الله الحرام .

وضع هؤلاء جملة من البحوث ، عرضوا فيها لقضية الاستعراب ، واللغة المنطوقة ، والأجناس البشرية التي كَوّنت المجتمع الأندلسي . فاتّسمت كتاباتهم بالتعصب الشديد لقوميتهم ، والتعصب الأعمى لمسيحيتهم . ثم استندت على افتراضات خاطئة يرفضها المنطق . وقد حاول بعضهم تشويه الحقائق وتزييف النصوص العربية عن طريق ترجمتها إلى الإسبانية بمقتضى أهوائهم .

رأينا أن ننهض لهذا الأمر ، وننفض عنه الغبار . يحفّزنا إلى ذلك أيضاً ، أن عدداً غير قليل من الباحثين العرب ، المشتغلين في مجال الدراسات الأندلسية ،

يجهلون اللغة القشتالية ، وبذلك تتعذر عليهم معرفة الموضوعات التي تكتب بها .

وللأمانة العلمية ، حرصنا على تسجيل آراء الإسبان بدقّة ، فيستفيد الدارس من النصوص المترجمة ، ويكوّن صورة صحيحة عن الموضوع والملابسات التي تحيط به .

إن جوهر القضية بالنسبة إليهم ، يتبلور في محورين رئيسيين . أولهما : أنهم يعتقدون أن الأندلسيين ، ابتداءً من الجيل الثالث أو الرابع على الأكثر ، لم يعودوا عرباً . وثانيهما : أن إسبانيا تأسلمت ، ولكنّها لم تتعرب . .

وفيما يتعلق بالمحور الأول : فإن خوليان ريبيرا ، يُعتبر صاحب أول نظرية تطرح في هذا المجال . وتقوم نظريته أساساً على دراسة سلسلة النسب الأبوي ، وإبراز أهمية الدور الذي يلعبه دم الأم في تكوين الأبناء . ولكي يثبت أن الأندلسيين لم يعودوا عرباً ابتداءً من الجيل الثالث ، يدرس موضوع زواج المسلمين الفاتحين من النساء الإسبانيات . ثم يركّز على إظهار أثر الدّم من جهة الأم في التكوين العرقي للأجيال المولدّة . وممّا يقوله في هذا المضمار : «إن الطفل ليس مخلوقاً يتفرد الأب في التأثير في تكوينه . بل للأم شأن كبير في ذلك أيضاً . وربما ، أو بدون ربما ، يكون للأم الدور الأكبر . فكم من الوقت تحمل الأم إبنها بين أحشائها . وكم من أشهر يكون غذاؤه خلالها من صدرها . ولو شئنا تتبع سلسلة نسب الطفل ، وإبراز الدور الهام الذي يلعبه دم الأم ، لخرجنا بانطباع يختلف تماماً عن أي توقع منتظر»[1] .

والأستاذ خوليان ريبيرا ، لا يعدم الوسيلة التي تمكّنه من دعم نظريته . فهو يفطن إلى أن أمراء وخلفاء الأسرة الأموية التي حكمت الأندلس ، ابتداءً بـ

(1) Julian Ribera : Disertaciones y Opusculos, Vol I. pp. 12 ff.

عبدالرحمن الداخل ، كانوا أبناء لأمهات غير عربيات . فيجري تجربته على هذه الأسرة ، ويجعلها محور نظريته . يقول : «كان عبدالرحمن الداخل إبناً لأمَةٍ بربرية ، وكان هشام الأول إبناً لأمَةٍ إسبانية أهدتها لأبيه ابنة يوسف الفهري . . وعلى نفس الطريقة يتوالى جميع أفراد هذه الأسرة . .»[1] .

ويجري بعد ذلك تحليلاً حسابياً ، فيقول : ونتيجة لذلك ، أننا إذا أردنا حسابياً تأكيد النوع العرقي ، آخذين بعين الاعتبار سلسلة النسب من جهة الأم ، مع مراعاة سلسلة النسب من جهة الأب . فالنتيجة سوف تكون على الشكل الآتي : إن عبدالرحمن الأول كان يحمل نصف دم عربي ونصف دم بربري (على افتراض أنه لم يحصل امتزاج لأفراد عائلته من قبل مع أجناس غير عربية) وهذا يعني أن نسبة الدم التي يحملها تكون بالأرقام ٥٠ بالمائة دماء عربية ، و٥٠ بالمائة دماء بربرية . وكذلك ، فسوف يحمل إبنه هشام الأول ، لكونه من أمّ غير عربية ، ٥٠ بالمائة من دماء الأم ، و٢٥ بالمائة دماء بربرية ، ويحمل فقط ٢٥ بالمائة من الدم العربي .

وهكذا إذا مضينا في هذا الدرب المنحدر ، فإننا نجد أن الحكَم الأول ليس له من الدم العربي سوى ١٢,٥٠ ، وليس لعبدالرحمن الثاني سوى ٦,٢٥ ، وأن الأمير محمد ليس له سوى ٣,١٢ ، وأن ولديه المنذر وعبدالله ليس لهما سوى ٠,٣٩ ، والحكم الثاني ليس له سوى ٠,١٩ ، وأخيراً فإن هشام الثاني ليس له سوى ٠,٠٩ بالمائة من الدم العربي[2] .

ويضيف ريبيرا قائلاً : «لو تأملنا ، من الوجهة الخارجية ، سلسلة نسب الخليفة هشام الثاني ، لوجدناها تكتظ فعلاً بأسماء عربية كثيرة لآبائه وأجداده . ولكننا إذا راعينا العملية الحسابية التي أجريناها ، نتبيّن أن الدم العربي الذي

(1) Julian Ribera : Disertaciones y Opusculos, Vol I. pp. 16.
(2) Disertaciones y Opusculus, Vol I. pp. 16.

يحمله هذا الخليفة أقل من جزء واحد من الألف»[1] .

ونتيجة لتلك النظرية ، فإن أهل الأندلس يصبحون عند ريبيرا إسباناً ينتمون إلى الشعب الأوروبي أكثر من انتمائهم للشعوب السامية في المشرق . ولهذا فإنه يهمل في دراساته استخدام مصطلح «أندلسي» أو «أندلسيون» حين يتحدث عن حضارة الأندلس . وبالتالي فإنه حين يدرس النصوص العربية ، فيترجم مباشرة كلمة أندلس «إسبانياً» وهذا ما فعله غرسية غومس أيضاً . ثم أصبح الأمر عادياً عند الباحثين الأسبان . ولم يشأ أحد منهم الإقرار بخطورة ذلك .

ومن جهة أخرى ، فإن ريبيرا يتأمل المظاهر المختلفة للحياة الاجتماعية والعملية لأهل الأندلس ، ثم يؤكد على إسبانيتهم بأنهم : «كانوا يلبسون أزياء أوروبية ، ويحتفلون بأعياد غير إسلامية - «كعيد يناير» و «عيد القديس يوحنا» - ويسيّرون أعمال زراعتهم وغيرها ممّا تَمس إليه حاجاتهم بمقتضى التقويم الأوروبي . ثم أنهم كانوا يتحدثون لغة أوروبية ، ويديرون أغانيهم حول مواضيع أوروبية»[2] .

ولكن كيف تبدو الحقيقة من وجهة نظرنا نحن . . ؟

المتّفق عليه أن المسلمين الذين افتتحوا الأندلس ، كانوا من الجند المحاربين . وكانت طبيعة الحروب وانتقال الجيوش من مكان إلى آخر لا تسمح بأن يصطحب الجند نساءهم معهم ، فيدفعهم بُعدهم عن أوطانهم وأسرهم إلى مصاهرة أهالي البلاد المفتوحة . وهكذا لم يجد العرب بأساً في الزواج من النساء الإسبانيات . نتج عن ذلك ظهور جيل مولّد يشعر بعاطفته نحو أمه أكثر من

(1) Disertaciones y Opusculus, Vol I. pp. 16.

(2) Historia de la Literatura Arabigo – Espanola, pp. 29.

أنظر أيضاً : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص٢١ .

شعـوره نحو أبيه . ومنشأ ذلك ، أن الظروف لم تكن بعد قد أتاحت الفرصة للعـرب في إثبـات وجـودهم الثقافي والحضاري . وكانت تنتظرهم مسؤوليات جسيمـة ، أهمّهـا ، العمـل على استتباب أمن البلاد على الصعيدين الداخلي والخـارجي . ثمّ العمـل على صَهر الكِتل البشرية المختلفة الأجناس في بوتقة اجتـماعية واحدة ، تحمل طابع الأندلسية ، وتتعرّب بجعل العربية لغة البلاد الرسمية ، واللغة التي توّحد ألْسِنَتهم في ميادين الحياة الخاصة والعامة . ولم يكن تحقيق ذلك بالأمر اليسير .

وليس علينا أن نظن ، أن أمر الوجود العربي اقتصر على من دخل منهم مع الجيوش الفاتحة ، وإنّما نؤكد أن تيار الهجرة من المغرب والمشرق إلى الأندلس لم يتوقف ، لا على شكل جماعات كثيرة العدد ، ولا على شكل عائلات مهاجرة ، بما فيها من النساء والشيوخ والأولاد . وقد استمر تيار الهجرة طويلاً . وبمرور الوقت كان زواج العرب من الأجانب يتلاشى شيئاً فشيئاً . خاصة أن الطبقة المحـافـظة شديدة الحـرص في الحفـاظ على أنسابها العربية ، تجد فيها فخرها وعـزتها . أضف إلى ذلك أن النساء الإسبانيات كنّ يساهمن في محاربة الوجود الإسلامي ، ديناً ولغة . وكانت الكنيسة تدفعهم إلى الاستشهاد عن طريق حرق أنفسهن بالنار ، بعد القذف بالإسلام والمسلمين .

إن جرثومة العصبية القبلية ، كانت متأصلة في نفوس العرب ، تبعث فيهم روح التضامن مع القبائل التي ينتمون إليها ، وحصر النسب فيها . فلسنا ندري كيف نسي خوليان ريبيرا ذلك ، وكان يعلم أن العصبية القبلية تسّبب في إضعاف نفوذ العرب في أزمنة مختلفة .

فمن العبث إذن ، أن نزعم أن العـرب كانـوا طوال العصر الأندلسي لا يتزوجون إلّا إسبانيات ، ولا ينجبون إلّا الذكور ، ليتزوجوا بدورهم من النساء العجميات فتضمحل بذلك الدماء العربية ، ولا يبقى غير العنصر المولّد . . !

أما عن استشهاد ريبيرا بالأسرة الأموية ، كدليل على اضمحلال الدم العربي من الأندلس . فإنه أمر يحسن الوقوف عنده قليلاً . فهو وإن صحّ من جهة ، فإنه لا يصح من جوانب عدة . أولاً : إن ما لاحظناه في موضوع الأسرة الأموية ، يكاد يكون ظاهرة وحيدة لا نعثر على مثيل لها طوال عهد المسلمين في الأندلس . ثانياً : إننا لا نعرف أن امرأة «أموية تزوجت إسبانياً» . بينما نعثر في صفحات المصادر على أسماء كثيرة لنساء أمويات متزوجات من رجال عرب من ذوي المراتب العلمية أو غيرها . ومن جهة أخرى ، فإن ابن حزم حين يتحدث عن قبائل بَلي يقول[1] : «ودار بَلي في الأندلس : الموضع المعروف باسمهم بشَمالي قرطبة ؛ وهَم هنالك إلى اليوم علَى أنسابهم ؛ لا يحسنون الكلام باللطينية ، لكن بالعربية فقط ، نساؤهم ورجالهم» .

إنه نصّ صريح يوضّح أن الرجال والنساء الذين يتحدث عنهم ابن حزم ، جميعاً من العرب الذين يحافظون على أنسابهم ، ويحافظون على لغتهم العربية ولا يكترثون باللغة اللطينية ، التي هي لغة الإسبان سكان البلاد الأصليين . فيبدو أن المسلمين لم يجدوا بأساً في معرفة تلك اللغة لِيتمّ لهم التفاهم مع النصارى ، وهو أمر طبيعي ، وكان هذا في بداية الأمر .

وأخيراً ، فإن إحساس الأندلسيين بعروبتهم ، لو تعرض للتلاشي ، فإن إحساسهم بالحفاظ على أنسابهم كان تلاشى أيضاً ، لأن العجم لا تكترث بهذه الظاهرة ؛ وما كان ابن حزم يُعنى بوضع كتاب «جمهرة أنساب العرب» ؛ ولو كان ابن حزم إسبانياً كما يدّعي خوليان ريبيرا وغرسية غومس ، لوجب عليه في أقل تقدير أن يضع كتاباً يسميه : جمهرة أنساب الإسبان . . !

وبعد هذا ، فهل يجوز للأستاذ ريبيرا ، أن يسمّي أهل الأندلس

---

١ - جمهرة أنساب العرب ، ص٤٤٣ .

«إسبـاناً» . . ؟ . فهو على سبيل المثال ، حين يتحدث عن النهضة الفكرية في الأندلس في العصر المرابطي ، يقول :[1] : وصل الإسبان من أهل الجنوب إلى أعلى درجات الإزهار الأدبي ، بل كان لهم أدب شعبي يجري على أساليب أوروبية» .

إن الباحث المنصف سوف يدرك خطورة هذا التحوير في التسمية . فلفظ «الإسبـان» سوف يُوهم أن حضـارة الأندلس من صنع الإسبان سكان البلاد الأصليين ، أي النصارى ؛ والنص يرد بلغته الأصلية هكذا[2] :

El pueblo espanol de las regiones del Medio

ونحن لابد لنا من توضيح ما يلي : أولاً : إنه لم يكن للإسبان سكان البلاد الأصليين أيّة مشاركة فعلية أو إسهاماً في صنع حضارة الأندلس ؛ والشخصيات التي برزت بين المستعربين من النصارى أو اليهود على حدّ سواء ، كانت محدودة جدّاً . ونحن حين نتحـدث عن حضـارة الأندلس ، إنّما نتحدث عن أولئك العلماء والأدباء والشعراء والأطباء والفلاسفة والفقهاء وغيرهم ، وهم في غالبيتهم العظمى من العرب . ومن كان ينتمي منهم إلى البربر ، كإبن دراج وغيره ؛ فإن البربر بعد الفتح الإسلامي للمغرب تعربوا باتخاذ اللغة العربية لساناً لهم ، وأنها أصبحت عندهم لغة الفكر والحضارة ، ولا تزال هكذا حتى يومنا هذا .

إن لفظ «إسبان» يجب أن يستخدم كنعت للنصارى فقط ؛ ولابدّ من التنويه أيضـاً أن شبـه جزيرة إيبـيريا في ذلـك الـوقت كانت تشتمل على دولتين ، أو مملكتين ؛ الأولى : دولة النصارى الإسبان ؛ تتكلم اللغة القشتالية ؛ وشعبها شعب أوروبي . والثـانية : دولـة الأنـدلس ؛ دينهـا الإسـلام ؛ ولغتها اللغة

---

١ - تاريخ الفكر الأندلسي ، ص٢١ ، أنظر أيضاً .

- Historia de la Literatura Arabigo - Espanola, pp. 28.

٢ - أنظر Historia de la Literatura Arabigo - Espanola, pp. 28

العربية ؛ وشعبها من أصل عربي ، إلى جانب البربر المسلمين الذين تعربوا لغة وفكراً .

فلا يجوز أن يقال إذن : حضارة الإسبان من أهل الجنوب . فهي حضارة أولئك العرب الذين عُرفوا باسم أهل الأندلس ، أو الأندلسيين ، لاتخاذها وطناً لهم ، وأصبحت نسبتهم إليها تميّزهم عن الإسبان سكان البلاد الأصليين ، وهم لم يتنكروا قط لأصلهم ، وظل إحساسهم بعروبتهم مصدر فخرهم وعزهم حتى آخر يوم لهم في الأندلس .

أما قول ريبيرا أنه كان للأندلسيين أدب شعبي يجري على أساليب أوروبية . فإنه يشير إلى الموشحات والأزجال ، وقد أثبتنا في كتابنا «الجديد في فن التوشيح»[1] .

إن تلك الأساليب الشعرية الأوروبية التي يتحدث عنها ظهرت في أوروبا بعد ظهور فن التوشيح بقرنين على الأقل ، وكانت محاكاة للموشحات وليس العكس .

وأخيراً ، فإن ما يذكره ريبيرا أن الأندلسيين كانوا يلبسون أزياء أوروبية ، ويحتفلون بأعياد غير إسلامية ، ويسيّرون شؤونهم وفق التقويم الأوروبي . فهو كلام عليه تعليق كثير . لقد نسي هذا المستشرق شهرة زرياب وتعاليمه التي استطاع أن يغيّر بها ملامح المجتمع الأندلسي في مظاهر الحياة الاجتماعية المختلفة ؛ في المأكل والملبس ، والاعتناء بالمظهر العام للفرد ، وشيوع الموسيقى والغناء . فهو الذي علم الأندلسيين طرائق مختلفة في صنع الطعام وطريقة تناوله التي لا تزال قائمة في أوروبا حتى اليوم ؛ وهو الذي نَبّه الأندلسيين على ضرورة الإعتناء بالملبس واختيار الثياب المناسبة بحسب الفصول ، واستحدث طرائق

---

١ - الجديد في التوشيح ، ص ٧٠ .

مبتكرة في تصفيف الشعر ، وقد انتقلت تلك التعاليم إلى أوروبا مباشرة .

وإذا احتفل أهل الأندلس بأعياد غير إسلامية ، فهو جزء من التفاعل الحضاري الذي تمّ بين طوائف الأندلس المختلفة .

وربما استخدم أهل الأندلس التقويم الأوروبي في تسيير شؤون أعمالهم في مجال الزراعة وغيرها ، مع علمنا أن جميع المصادر التي تؤرخ للأندلس تستخدم التاريخ الهجري فقط . وقد يكون استخدام التقويم الأوروبي بين المسيحيين في مناطقهم ، أو بينهم وبين العرب في المدن التي سقطت مثل مدينة طليطلة .

وعلى كل حال ، فإن التقويم الأوروبي في ذلك الحين ليس هوالمعروف اليوم ، بل كان يعرف باسم «تاريخ الصفر» . فقد وصلتنا مجموعة كبيرة من الصكوك التي تمثل طريقة البيع والشراء وإجراء جميع المعاملات العامة ، في مدينة طليطلة بعد سقوطها سنة ١٠٨٥م . فقد جاء في أحد الصكوك[١] : «اشترى عبيد بن أسد من خلف بن عبدالله جميع الكرم الذي له في أول منزلة رزين . . في شهر نوفمبر الكاين في سنة ثلاثين ومائة وألف من تاريخ الصفر» . و«تاريخ الصفر هو تاريخ كان مصطلحاً عليه في إسبانيا من قبل دخول الإسلام ، بل من قبل المسيح . وكان مبدأه في أول يناير سنة ٣٨ قبل المسيح لعهد أغسطس قيصر ، وبقي هذا التاريخ معروفاً في إسبانيا إلى القرن الخامس عشر للمسيح»[٢] .

أما قول ريبيرا ، أن أهل الأندلس كانوا يتكلمون لغة أوروبية ، فشأنه في ذلك شأن جميع الباحثين الإسبان . فهم يزعمون أن اللغة العربية كانت منحصرة ضمن الدوائر الرسمية وفي مجالات التعليم فقط . أما على مستوى

---

١ - الحلل السندسية ، الجزء الأول ، ص٣٦٨ .

٢ - الحلل السندسية ، الجزء الأول ، ص٣٦٨ .

الحياة الاعتيادية ، فكانت اللطينية أو الرومانثية ، ويقصد بها عامية اللغة القشتالية .

ونحن نؤكد بدورنا عدم صحّة هذا الرأي ، ونؤكد أن اللغة العامة المستخدمة من قبل جميع الطوائف ، كانت عامية العربية المطعّمة بمفردات أجنبية : إسبانية ، بربرية ، وعبرية . ودليلنا على ذلك ، فن الزجل ، وهو فن شعبي يصور الأندلسيين في حياتهم الاجتماعية الأكثر ابتذالاً . ويمكننا أخذ صورة واضحة عن اللغة العامية المنطوقة ، بإلقاء نظرة عابرة على ديوان ابن قزمان وعلى أزجال غيره من الشعراء .

ومع هذا ، فهناك حقيقة هامة لا ينبغي على الباحث المنصف إهمالها ، وهي أن الطوائف الأندلسية كانت تعيش حياة تشبه حياة المعسكرات . ويجتمع أفراد كل طائفة في ضاحية معيّنة تُعرف باسمهم ، كضاحية الربض ؛ فقد كان سكانها من البربر فقط . وكذل كان الحال مع نصارى الأندلس . ولسنا نستغرب أن يتكلم هؤلاء فيما بينهم بلغتهم الأصلية ، ولكنهم عندما يخرجون إلى المجتمع ، يستعملون عامية العربية التي تعارفت عليها جميع الأجناس . فإننا نعثر في مواضع مختلفة من المصادر عن حوار يتم برطانة البربر بين البربر أنفسهم ، ونفس الشيء يتم عند الآخرين . وقد ذكرنا سابقاً أن قبائل بَلِي كانت لا تتكلم غير العربية .

أما أن يكون شيوع العربية بين الناس مرهوناً بعدد العرب الداخلين إلى الأندلس . فإننا نعترف أن العنصر العربي كان أقل من البربر وأقل من المسيحيين سكان البلاد الأصليين . ولكن ليس علينا أن نبالغ في ذلك . فلو تناولنا كل مدينة بمفردها وأحصينا عدد العرب فيها ، لَتبيّن لنا أن عدد العرب لم يكن قليلاً ، كما نظن . ثم علينا أن ندرك شيئاً آخر بالغ الأهمية ، وهو أن الحضارة الأندلسية تدين للعرب دون سواهم .

ونحب أن نُنبّه ، أخيراً ، أن نظرية ريبيرا لقيت صدى واسع الانتشار بين الباحثين الإسبان المتخصصين في مجال العلوم السامية ، أو الدراسات الإسلامية ، وتبنّوا جميع آرائه واعتمدوا عليها في بحوثهم التي خصّصوها في دراسة الأندلس حضارة ولغة وشعباً . فالمستشرق أنخل غونثالث بالنثيا ، على سبيل المثال ، يستشهد بآراء ريبيرا فيقول في إحدى دراساته : «أصبح من الواضح نتيجة للأبحاث التي وضعها الأستاذ خوليان ريبيرا . أن أهل الأندلس الإسلامي كانوا يستعملون العربية الفصحى كلغة رسمية يتعلمها الناس في المدارس ويكتبون بها الوثائق وما إليها ، أما في شؤونهم اليومية وأحاديثهم فيما بين بعضهم بعض ، فكانوا يستعملون لهجة من اللاتينية الدارجة أو العجمية el romance . وليس ذلك بغريب ، لأننا إذا ذكرنا أن عدد العرب الخلّص الذين دخلوا الجزيرة كان قليلاً جداً ، تبيّنا أننا لا نستطيع اعتبار الأندلسيين المسلمين ساميين أو مشارقة ، ابتداء من جيلهم الثالث أو الرابع بعد الفتح ، ولنضف إلى ذلك أن شعوب أوروبا كانت تستعمل في ذلك الحين اللاتينية كلغة ، وأن ناسها كانوا يتحدثون إلى جانبها لهجات أعجمية romance مختلفة مشتقة من اللاتينية»[1] .

ويقول في موضع آخر : «بعد انقضاء بضعة سنوات ، أصبحت نظرية خوليان ريبيرا مقبولة وشائعة لدى الباحثين . تلك النظرية التي وضعها سنة ١٩١٢ ، أكّد فيها أن اللغة الرومانثية كانت اللغة المنطوقة عند مختلف طبقات المجتمع الأندلسي ، وأن ذلك المجتمع قد أصبح بأسره تقريباً من العرق الإسباني»[2] .

ولكي يؤكّد غرسية غومس فكرة إسبانية الأندلسيين ، فإنه يستشهد على

١ - تاريخ الفكر الأندلسي ، ص١٤٢ .

٢ - أنظر : Moros y Cristianos en Espana Medieval pp. 46

صحّة إسبانية ابن حزم من خلال بيت شعر له ، يقول فيه[1] :

ويـا جوهـر الصين : سحقاً ! فقد غَنِيـتُ بيـاقـوتـةِ الأنـدلس

ويترجم البيت هكذا :

Vete en mal hora, Perla de la china!

me basta a mi Con mi rubi de Espana.

فقد اطمأن تمام الاطمئنان ، واقتنع تمام الاقتناع بجواز ترجمة «الأندلس» «إسبانيا» ، ثمّ أكدّ على إسبانية ابن حزم فقال : «وكان ابن حزم إسبانياً خالصاً» .

والحقيقة أن الذي جعل غرسية غومس يدّعي ذلك ، أنه استغل قضية اختلاف الروايات في أصل ابن حزم ، واعتمد على رواية ابن حيان ، وهي الرواية الوحيدة التي يُذكر فيها أن ابن حزم مُوَلّد الأرومَة من عَجَم لَبْلَة[2] . والثابت إنه من أصل فارسي كما يَروي الحميدي تلميذه . وابن حزم نفسه يذكر نسبته إلى الفرس ، وقد افتخر بذلك في إحدى قصائده ، فقال[3] :

سَما بيَ ساسـانٌ وداروا وبَـعْـدَهُـمْ قُرَيْشُ العُـلَى أعيـاصُهـا والعَنـابِسُ
فما أخّـرَتْ حَربٌ مراتـبَ سُؤدَدي ولا قَعـدتْ بي عن ذُرَى المجـد فارس

وهكـذا نلاحظ فشل الباحثين الاسبان في جعل الأندلسيين من العرق الإسبـاني ، ونـلاحظ عدم أمـانتهم العلمية في تنـاول الحقـائق وفي ترجمـة النصوص ، واعتماد الضعيف منها في دراساتهم ، ثم تعميم الأحكام من خلال قضايا جزئية .

---

١ - تاريخ الفكر الأندلسي ، ص٧٦ . أنظر أيضاً :
Historia de la Literatura Arábigo – Espanola pp. 65.

٢ - الذخيرة ، ق١ م١ ص١٧٠ .

٣ - تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، ص٣٠٤ .

فلم يكن ابن حزم إسبانياً خالصاً ، ولو كان كذلك ، لوجب عليه أن يتعصب لاسبانيته كما فعل ذلك عدد من المُولّدين ، وكان عليه أن يتعصب أيضاً لِلُغة الإسبان ، فجميع مؤلفاته عربية اللّغة والفكر والإحساس . .

أما فيما يتعلق بالمحور الثاني : في أن إسبانيا تأسلمت ولم تتعرب . . فإن خوليان ريبيرا له شأن في هذا المجال أيضاً ، فهو حين يتحدث عن مسألة التعريب في الأندلس ، يثير الفكرة الآتية : إن استخدام قوم لِلُغة غيرهم من البشر ، لا يعني البَتّة أنهم ينتمون إلى نفس العرق . فهو يقول : «إن اللغة لا تستلزم وجود عنصر بشري معين . فاللّغة اللاتينية مثلاً ، كانت لغة النطق والكتابة عند السلت والغال والجرمان والصقالية . . وكذلك فإن اللّغات السامية استخدمت من قبل شعوب مختلفة كالفرس والهند والاسبان . . . فإذا كان أهل الأندلس ينطقون ويكتبون باللّغة العربية فإن هذا ليس كافياً لجعلهم شعباً سامياً»[1] .

نلاحظ هنا أن ريبيرا يعرض علينا شيئاً متفقاً عليه ولا خلاف فيه ، ويخفي عنا الحقيقة التي نحن في صددها . فنحن لسنا ندعي أن النصارى الذين اعتنقوا الدين الإسلامي ، أو النصارى الذين تمسّكوا بعقيدتهم في ظل المسلمين ، وعُرفوا بالمستعربين ؛ أو اليهود . . أنهم أصبحوا عرباً لأنهم كانوا يتكلمون اللغة العربية ويكتبون بها . بل ما نريد طرحه : إن الحضارة الأندلسية هي من صنع الجنس العربي وليس لبقية الأجناس من مشاركة إلّا في القليل الذي يُمكن حصره . فقلّما «تجد في الأندلسيين شاعراً مُفْلِقاً أو كاتباً بليغاً أو عالماً ضليعاً ، إلّا ونَسَبُه من قبيلة من تلك القبائل العربية ، فكان يحيى الغزال أول شعراء الأندلس الفلاسفة من بني بكر بن وائل ، وكان يوسف بن هارون الرمادي معاصر المتنبي من كندة ، وأبو بكر المخزومي هَجّاء

---

١ - Disentaciones y Opusculos, vol I. pp. 12.

الأنـدلس من بني مخزوم ، وكذلك أبو بكر بن زيدون ، وابنه أبو الوليد بن زيدون الشهير ، وكان أبو بكر بن عمار ينتسب إلى مهرة بن قضاعة وغير هؤلاء كثيرون ، فضلاً عمّن لم يعرف سبيل اعتزائهم من الآباء ، لأن الانتساب إلى العـرب كان محفوظاً بالأكثر في العلماء والفقهاء والأعيان ، متميزاً فيهم كبني سراج الأعيان من أهل قرطبة ، فينسبون إلى مُذحِج ، وبنو المنتصر العلماء من أهل غرناطة إلى مرّة بن أود بن زيد بن كهلان . . . وبنوا عبّاد أصحاب إشبلية إلى لخم بن عدي ، وهم من ولد النعمان بن المنذر صاحب الحيرة»[1] .

وقال أحد الباحثين الاسبان : «تأسلمت الجزيرة ولم تتعرب ، عدا أنها قبلت اللغة العربية في مجال التعليم . حقّاً أن سكان الجزيرة اعتنقوا الإسلام ، ولكن وفود العرب إليها كان ضئيلاً . وقد أثبت الدكتور بوش ، أن العرب لم يبلغ عددهم العشرين عنـدمـا اجتـازوا لأول مرة مضيق جبـل طارق سنـة ٧١١م . والعرب الذين كانوا برفقة موسى بن نصير ، لم يتجاوز عددهم خمسة آلاف رجـل . أمـا أهل إفريقيا ، فكانوا أقل من عشرة آلاف أتوا في بداية الفتح ، ثم تزوجوا نساء إسبانيات ، الأمر الذي جعل النشأ الجديد في معظمه يخلو من النسب العربي أو المغربي»[2] .

والغريب في هذا الباحث ، أنّه بدأ بحثه قائلاً : «إن غالبية سكان جزيرة إيبـيريا ، خلال القـرون الوسطى اعتنقوا الدين الإسلامي ، ولهذا فإنه من المحال أن نعتبر العرب عنصراً غريباً عنّا : فبكل اطمئنان يمكننا أن نؤكد أن الجد الثلاثين لأي إسباني اليوم يحتمل على الأكثر أن يكون مسلماً وليس مسيحياً»[3] .

١ - تاريخ آداب العرب ، ٢٦٨/٣ .

٢ - Introduccion a la Historia de Espana p. 59

٣ - Introduccion a la Historia de Espana p. 57

ويقول في مكان آخر من كتابه : يُتجه دائماً إلى مزج ما هو عربي بما هو إسلامي ، في الوقت الذي نجد فيه اختلافاً ظاهراً بين المعنيين . فنحن نفهم من المصطلح «عربي» ما يتعلق بالعرق واللغة العربية في محيط العربية السعودية : إن أهل السعودية فقط عرب . وفي المقابل يجب أن يُطلق لفظ «مسلم» على كل رجل يعتنق دين محمد . ومن الواضح ، أن اعتناق الدين الإسلامي يمكن أن يقوم به عربٌ أو أي عرق آخر كالبربر واللاتين ؛ ولا يجب مزج العرق بالدين ؛ ولهذا لا يمكن أن نتكلم عن التعريب في إسبانيا ولا عن العرَق العربي»[١] .

وقد تحمّس باحث آخر إلى فكرة حذف صيغة «مستعربون» كتسمية تطلق على المسيحيين الذين احتفظوا بعقيدتهم وعاشوا في المدن الإسلامية ، فقال : «يبدو لي أنه من المنطق أن نسمّي المسيحيين الذين كانوا يعيشون في الأندلس : «مسيحيون يعيشون في الأندلس» . ولست أرى أيّ مبرّر على تسميتهم مستعربين . والمستعربون هم أولئك الذين كانوا يعيشون في مناطق لم تكن تابعة للمسلمين في شمال إسبانيا ، ذهبوا إليها خلال عصور متفاوتة . تلك الفئات تُعتبر المسؤولة عن انتشار الثقافة والعادات الإسلامية في الشمال من إسبانيا»[٢] .

ويضيف قائلاً : «يجب أن نعلم أن صيغة «مستعرب» ، وكذلك الصيّغ المشتقّة الدّالة على التعريب ، كانت مجهولة في محيط مثل المحيط الأسباني العربي . والنتيجة الطبيعية لهذه القضية ، أن عبارة «مستعربون» لم تكن قد استخدمت إطلاقاً للدلالة على المسيحيين الذين كانوا يعيشون في ظل الإسلام»[٣] .

---

١ - Introduccion a la historia de Espana, p. 58

٢ - Andalucia Medieval, p. 150

٣ - Andalucia Medieval, p. 151

إن ما يشين أبحاث الإسبان أحياناً ، تعصّبهم الشديد لقوميتهم ومسيحيتهم . فهذا الباحث يدعو إلى حذف مصطلح «مستعرب» ويستنكر أن يكون قد استخدم كتسمية تطلق على المسيحيين الذين اتخذوا اللّغة العربية لساناً لهم . وكأنه لم يطّلع على الصكوك الكثيرة والوثائق التي عُني أنخل غونثالث بالنثيا بجمعها وترجمتها إلى الإسبانية . وهي تمثل طرائق التعامل ، بين سكان مدينة طليطلة بعد سقوطها في أيدي النصارى ، في البيع والشراء وغير ذلك ، وهي مكتوبة باللغة العربية لأن الاستعراب بقي في تلك المدينة واستمر حتى سنة ١٥٨٠ ميلادية ، ولم يندرس إلّا بعد أن تكرّرت الأوامر الصادرة من الحكومة بمعاقبة كل من يتكلم العربية أو يكتب بها .

والمهمّ في تلك الصكوك ، أنها إذا ذَكَرت الإفرنجي تنصّ عليه بأنه افرنجي وإذا ذكرت الأسبانيولي المتكلم بالعربية تنصّ عليه بأنه مستعرب ، وإذا ذكرت المسلم أشارت أنه مسلم ، وإذا ذكرت اليهودي أشارت إليه بأنه إسرائيلي . .

فمثلاً ، يأتي في أحد الصكوك : اشترى ربي بو اسحق بن نحميش اليهودي من جميلة بنت فرج[١] . . .

وفي صك آخر : اشترى خير بن ركوى من يحيى بن عبدالسلام جميع الدار التي له بحومة رحبة القشالي ، حد الدار في الشرق دار خلف بن جواد ، وفي الغرب دار جلبارت الفرنجي[٢] :

وفي صك آخر : اشترى يوان مستعرب ، لدون ملندة الدليل[٣] . . .

---

١ - الحلل السندسية ، الجزء الأول ، ص ٣٦٧ .
٢ - الحلل السندسية ، الجزء الأول ، ص ٣٦٩ .
٣ - الحلل السندسية ، الجزء الأول ، ص ٣٨٧ .

ويعلق الأمير شكيب أرسلان في هذا المجال فيقول : وقد رأينا هذه اللفظة «مستعرب» مراراً في هذه الصكوك ، واستدللنا بها على أن نصارى طليطلة كانوا قسمين ، قسم يقال لهم المستعربون ، وهم الذين كانوا يتكلمون ويكتبون ويقيمون صلواتهم باللغة العربية ، وقسم آخر كانوا يتكلمون ويكتبون بالاسبانيولي ويقيمون صلواتهم باللاتينية ، وهذا هو السبب في أنهم عند كتابة الصكوك يميزون الأسبانيولي الذي لغته العربية بقولهم مستعرب[1] .

وخلاصة القول ، أن الأمر قد يبقى معلّقاً بين أخذ ورَدّ ، وتعصّب كل طرف إلى وجهة نظره . وتفادياً لتلك النتيجة ، فقد ارتأينا أن نستفتي أهل الأندلس أنفسهم في ذلك ، باعتبارهم أصحاب الشأن ، فإن مؤلفاتهم وإن كانت صامتة ، إلّا أنّها قد تُفصح عن كثيرٍ ممّا يتعلق بشؤون حياتهم وأحوالهم ، وإنّ كلمتهم سوف تكون الفيصل الحاسم .

ومن المهم هنا ، أن نشير إلى الطوالع العربية التي دخلت الجزيرة إبّان الفتح وبعده ؛ ولكن أحب أن أقول إنني لن أنظر إلى عروبة أهل الأندلس من خلال الكم البشري للجنس العربي ، والنسبة التي يشكلونها بين الأجناس الأخرى ، كثيرة كانت أم قليلة ، لأنني سأعتمد أساساً على مواقف الأندلسيين المعبّرة عن إحساسهم الصادق بعروبتهم وشعورهم العميق بالانتماء القومي إلى المشرق . وسأعتمد أيضاً على دراسة سلسلة النسب ، واستمرارية الدم العربي الأبوي والأمومي ، لإثبات استمرارية الدم العربي حتى تاريخ سقوط مدينة غرناطة . وسوف أبرهن في نفس الوقت ، أن الداخلين إلى الأندلس من العرب أكثر بكثير ممّا يظن الباحثون .

جاء في البيان المغرب لابن عذارى المراكشي ، أن المسلمين الذين عبروا

---

١ - الحلل السندسية ، الجزء الأول ، ص ٣٩٤ .

المضيق بقيادة طارق بن زياد ، كانوا من العرب والبربر ، وأنهم بنوا في جبل طارق سوراً على أنفسهم يسمى سور العرب[١] . فتسمية السور توحي أن عدد العرب الداخلين مع طارق يزيد كثيراً عن العدد الذي يحدّده بعض المؤرخين .

ثم كانت طالعة موسى بن نصير في شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين ، وكانت تضم ثمانية عشر ألفاً أو أكثر من وجوه العرب[٢] .

وفي شهر ذي الحجة سنة سبع وتسعين قدم الحر بن عبدالرحمن الثقفي والياً على الأندلس ومعه أربعمائة رجل من العرب[٣] .

وكانت طالعة بلج بن بشر القشيري الذي دخل الأندلس في شهر ذي القعدة سنة ١٢٣هـ ، وكانت تضم نحو عشرة آلاف من عرب الشام[٤] .

وفي شهر رجب سنة ١٢٥هـ ، قدم أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي والياً على الأندلس من قبل حنظلة بن صفوان صاحب إفريقيا . ولكن المصادر لا تذكر عدد الرجال الذين أتوا برفقته[٥] .

وقد وفد إلى قرطبة أيضاً سنة ١٤٠هـ ، رجال من المشرق ومن بني أمية فأنزلهم الأمير عبدالرحمن الداخل ، وأكرمهم وأحسن جوائزهم[٦] .

ويوجد نصّ كبير الأهمية يؤكد أيضاً ، كثرة الداخلين من العرب ، فقد جاء في «البيان المغرب» ، أن أمية وقطناً ابني عبدالملك بن قطن حشدا في جهة

---

١ - البيان المغرب ، ٢/٩ .
٢ - نفح الطيب ، ١/٢٦٩ ، البيان المغرب ، ٢/٢٥ .
٣ - نفح الطيب ، ٣/١٤ البيان المغرب ، ٢/٣١ .
٤ - نفح الطيب ، ٣/٢٠ البيان المغرب ، ٢/٣١ .
٥ - نفح الطيب ، ٣/٢٢ ، البيان المغرب ، ٢/٣٣ .
٦ - البيان المغرب ، ٢/٤٩ .

سرقسطة ، وكانا قد هربا من قرطبة وقت إخراج أبيهما منها ، وجاءا إلى بلج طالبين بثأرهما ، وهما في نيّف على مائة ألف من العرب القدماء والحدث ، فخرج إليهما بلج ، وهو في أقل من خمس عددهما ، فاقتتلوا قتالاً شديداً[1] .

والحقيقة أنه من الخطأ أن نظنّ أن عدد العرب الداخلين إلى الأندلس اقتصر فقط على الطوالع . بل أن الهجرة من المشرق إلى الأندلس ظلت متواصلة دون انقطاع لفترة طويلة من الزمن ، فلقد دخلت منهم أعداد كثيرة تفوق كل إحصاء . وفي ذلك يقول المقري : إعلم أن الداخلين للأندلس من المشرق قوم كثيرون لا تحصر الأعيان منهم فضلاً عن غيرهم[2] .

ويقول في موضع آخر : «واعلم أنه لمّا استقرّ قدم أهل الإسلام بالأندلس وتتام فتحها ، صرف أهل الشام وغيرهم من العرب هِممهم إلى الحلول بها ، فنزل بها من جراثيم العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم إلى أن كان من أمرهم ما كان .

فأما العدنانيون فمنهم خندف ومنهم قريش ، وأما بنو هاشم من قريش فقال ابن غالب في فرحة الأنفس : بالأندلس منهم جماعة كلهم من ولد إدريس ابن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، ومن هؤلاء بنو حمود ملوك الأندلس بعد انتشار سلك بني أمية . . . وأما المنتسبون إلى عموم كنانة فكثير وجلّهم في طليطلة وأعمالها ، ولهم ينسب الوقشيون الكنانيون الأعيان الفضلاء الذين منهم القاضي أبو الوليد والوزير أبو جعفر ، ومنهم أبو الحسين ابن جبير صاحب الرحلة .

وأما قيس عيلان بن الياس بن مضر من العدنانية ففي الأندلس كثير

---

١ - البيان المغرب ، ٢/٣٣ .
٢ - نفح الطيب ، ٣/٥ .

منهم . ومن قيس من ينتسب إلى هوازن بن منصور بن عكرمة ، قال إبن غالب : وهم بإشبيلية خلق كثير . وأما ربيعة بن نزار فمنهم من ينتسب إلى أسد بن ربيعة بن نزار ، قال في فرحة الأنفس : إن إقليم هؤلاء مشهور بإسمهم بجَوْفيّ مدينة وادي آش . وقال ابن غالب : وكان جزء الأنصار بناحية طُلَيْطلة ، وهم أكثر القبائل بالأندلس في شرقها ومغربها . ومن الخزرج بالأندلس عُبَادة بن عبدالله بن ماء السماء من ولد سَعد بن عُبَادة صاحب رسول الله ﷺ ، وهو المشهور بالموشّحات ، وإلى قَبْس بن سعد بن عبادة ينتسب بنو الأحمر سلاطينُ غَرْناطة .

ومن أهل الأندلس مَنْ ينتسب إلى حَضْر مَوْت ، منهم الحضرميون بمُرسية وغَرْناطة وإشبيلية وبَطَلْيَوس وقُرْطُبة ، قال ابن غالب : وهم كثير بالأندلس»[1] .

ومن الملاحظات الهامة التي ترد على لسان ابن سعيد الأندلسي في أثناء حديثه عن الأنصار ، أنه قال : والعجب أنّك تعدمَ هذا النسب بالمدينة وتجد منه بالأندلس في أكثر بلدانها ما يشذّ عن العدد كثرة ، ولقد أخبرني من سأل عن هذا النسب بالمدينة فلَم يجد إلّا شيخاً من الخزرج وعجوزاً من الأوس[2] .

وقد أفاض المقري في الحديث عن أنساب العرب والقبائل التي ينحدرون منها وختم حديثه بأن العرب والبربر كلّما مرّ قوم منهم بموضع استحسنوه حطّوا به ونزلوه قاطنين فاتّسع نطاق الإسلام بأرض الأندلس[3] .

وأخيراً ، فإن المطّلع على كتاب «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم ، يستطيع أن يكوّن فكرة صحيحة وتامة عن عروبة أهل الأندلس ، وعن

---

١ - نفح الطيب ، ١/ ٢٩٠ - ٢٩٨ .
٢ - نفح الطيب ، ١/ ٢٩٤ .
٣ - نفح الطيب ، ١/ ٢٩٣ .

أنسابهم العربية التي تربطهم بجزيرة العرب . فقد أجرى ابن حزم إحصاءً دقيقاً للمواطن التي استقرّت بها قبائل العرب في الأندلس . وسوف نسوق بعض ما أورده ، لنؤكد على كثرة العرب وانفرادهم في السكنى عن غيرهم[1] :

- بنو كنانة : دارهم بالأندلس ، شَذُونَة والجزيرة .
- بنو أسد : دارهم بالأندلس ، البرَاجِلة والبُشَرَّة من كورة إلْبيرة .
- بنو بُهدلة : نزلوا بقرية ضخمة تسمى الزَّبارقة ، نسبت إليهم ، ثم غلب النصارَى عليها ، فانتقلوا إلى طلَبيرة ، فمَحَلّتُهم بها معروفة بحومة العَرَب إلى اليوم .
- بنو أفْصَى : ودارُهم بالأندلُس : أَلْش وأعمالها وما حواليْها .
- بنو مُرَّة : دارهم بالأندلس : إلبيرة ، ولهم بإشبيلية أهلُ بيت واحد وهم بنو عوف بن مُرَّة .
- دار بني نُمَيْرة بالأندلس : البَرَاحِلة .
- بنو قُشَيْر : دارهم بالأندلس : جَيَّان ، ومنهم بإلْبيرة عَدَدٌ .
- بنو خُوَيْلِد : دارهم بالأندلس : جَيَّان ، ووادي آش .
- بنو النصر : دارهم بالأندلس : حِصنُ وَضّاح ، من عَمَل رَيَّة .
- بنو نمارة : دارهم بالأندلس : قَرْمُونة ولَبْلة .
- بنو عَكٍّ : ودارهم بالأندلس معروفة باسمهم ، في الجوف في شمال قُرطبة .
- بنو بَجيلة : ودارهم بالأندلس : أربونة .
- بنو هَمْدان : دارهم بالأندلس : إلبيرة .
- بنو الأشْعَر : دارهم بالأندلس : رَيَّـة .
- بنو طي : دارهم بالأندلس : بَسْطَة ، وتَاجلة ، وغلْيَار .

---

١ - جمهرة أنساب العرب ، ص ١٨٩ ، ١٩٦ .

- بنو عَنْس : دارهم بالأندلس : قلعة يَحْصِب ، غرناطة .
- بنو جُذام : دارهم بالأندلس : شَذُونَة ، والجَزيرة ، وتُدْمِير ، وإشبيلِيَة
- بنو لَخْم : دارهم بالأندلس : شَذُونة ، والجزيرة ، وإشبيلية .
- بنو تُجيب : دارهم بالأندلس : سَرَقَسْطة ، ودَرَوْقة ، وقلعة أيوب .
- ذو رُعَيْن : دارهم بالأندلس : الفحْص المنسوب إليهم برِيَّة .
- بنو هَوزن : دارهم بالأندلس : القريتان المذكورتان بهما بإشبيلِيَة ، وهم بنو الداخل من حمص
- بنو عُذْرة : دارهم بالأندلس : دَلاَيَة ، وبجَيَّان منهم ، وبالثَّغْر .
- بنو خلدون : دارهم بالأندلس : إشبيلية .

وهكذا ندرك من خلال الإحصاء الذي يَرِد في «الجمهرة» ، أن عدد العرب في الأندلس كان كثيراً . والذي يدل على كثرتهم أيضاً أنهم كانوا يتميزون بالقبائل والعمائر والبطون والأفخاذ[1] .

وبقى لنا في نهاية المطاف أن نستفتي الأندلسيين لِنَرى ما عندهم . فإننا لو أخذنا ابن دراج ، على سبيل المثال ، مع علمنا بنسبه البربري ، لوجدنا عدداً ضخماً من قصائده ، ينبعث منها الحس العربي ، وتمجيد الدولة العربية في الأندلس . «فهو لم يشعر قط بعصبيته لنسبه الصنهاجي البربري ، بل هو لا يرى بأساً في أن يهجو الزعيم البربري زيري ابن عطية المغراوي حينما أعلن الثورة على المنصور إبن أبي عامر»[2] .

---

١ - جمهرة أنساب العرب ، أنظر الصفحات : ٢١٨ ، ٢٤٠ ، ٢٥٤ ، ٢٨٠ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٣٠٢ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٣٠ ، ٤٣٤ ، ٤٣٤ ، ٤٥٠ ، ٤٦٠ .

٢ - نفح الطيب ، ١/٢٩٣ .

٣ - ديوان ابن درّاج ، المقدمة ، ص١٥ .

والمرجّح أن طوائف البربر التي دخلت الأندلس إبّان الفتح قد اندمجت كلية بالمجتمع الأندلس الجديد فما عادت تتعصب لغير أندلسيتها ، ولا تتذوق غير اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم . فقد انتشر التعريب بين سائر الطوائف ، وأصبحت اللغة العربية لغة الدولة الرسمية ، ولغة أهل الأندلس في حياتهم الخاصة والعامة على السواء . وكان التعريب أيضاً قد شاع في المغرب بين البربر كنتيجة حتمية لدخولهم الإسلام . وقد نبغ فيهم علماء وشعراء وأدباء ، حتى أن ابن الأحمر ، الأمير إسماعيل بن يوسف ، يُعجب من نباهة الفقيه الكاتب أبو العباس الجزنائي المتوفي سنة ٧٥٠هـ ، وهو فيلسوف وطبيب ، فقد أعجب من إجادته وبراعته في الشعر ، وقال فيه : «ولو كان من الأعراب ، لشمل في شعرائها وحمل راية الكلام في أمرائها . والبربر لا تقاس بالعرب ، والتبر لا يماثل بالترب والعجب من بربري الأصل ، يذري مدارك الاعراب ، ويأتي الفصاحة اليعربية بالإعراب[١] .

وابن درّاج في الأندلس مثال واضح على ذلك ، وقصائده التي يتضمنها ديوانه تكتظ فيها المصطلحات : عرب ، عروبة ، يعرب ، وهي ترد في مناسبات تدل على تمجيدالعروبة والدولةالعربية في الأندلس . «ولعل من أجلّ المناسبات التي رفع فيها ابن درّاج لواء شعره في الإشادة بعظمة الإسلام وعزّة الدولة العربية ، تلك الغزوة التي وجهها المنصور في جمادى الثانية سنة ٣٨٧هـ ، يولية سنة ٩٩٧ إلى شنتياقب Santiago de Compastela في منطقة جليقة Galicia [٢] . قال في تلك الغزوة يمدح المنصور وابنه عبدالملك وعبدالرحمن[٣] .

لكَ الـبُشْرى ودُمْـتَ قريـرَ عَيْنْ بشَـأْوَيْ كوكَـبَيْـكَ النّـاقِبَـيْنْ

---

١ - نثير فرائد الجمان ، ص٣٣٦ .

٢ - ديوان ابن دراج ، المقدمة ، ص٤٤ .

٣ - ديوان ابن دراج ، ص٣١٤ .

مليـكَـيْ حِمْيَرٍ نَشَـآ وشَـبَّـاَ بتـيـجـانِ الـسَّـنـاءِ مُتـوّجَـينَ
صَفِـيـي ما نَمَـتْ عُلْيَـا مَعَـدٍّ وسِيـطَي يَعـرُبٍ في الـذِّرْوَتـينِ

وفي قصيدة أخرى يتعرض فيها للمسيحيين ، فيقول[1] :

عمـودُ شركِـهُم السَّـامي ذوائِبُـهُ والـرُّومُ والحُبْشُ والأَفرَنْجُ من طُنُبِهِ

فالإسبان بالنسبة للأندلسيين : إفرنج ، روم ، عجم ، أهل شرك . فشعورهم هذا لا يوحي بأنّهم ينتمون إلى أوروبا أكثر من انتمائهم إلى المشرق .

ويقول ابن درّاج في قصيدة أخرى يمدح فيها المنصور[2] .

تلاقَـتْ عليـهِ من تَميـمٍ ويَعْـرُبٍ شُمـوسٌ تَلاَلاَ في الـعُـلا ويُـدُورُ
منَ الحِـمْـيَرِيّـينَ الـذيـنَ أكـفُّهُمْ سحـائِبُ تهمِي بالنَّـدى ويُحُـورُ

قال الحميدي : قال أبـو محمـد علي بن أحمـد -ابن حزم- الفقيه : كان المنصور بن أبي عامر معافري النسب من حِمْيَر ، وأمّه تميمية وهي بريهة بنت يحيى بن زكريا التميمي المعروف بابن البرطال . ولذلك قال فيه ابن دراج تلك القصيدة[3] .

وقال في قصيدة أخرى يمدح بها المنصور[4] :

فاسعَـدْ بِسِبْـطَيْ دولَـةِ العَرَبِ التي بسنـاهُمَـا جَلَتِ الخطوبُ ظلامَهـا

---

١ - ديوان ابن دراج ، ص ٣٧٤ .
٢ - ديوان ابن دراج ، ص ٢٥٢ .
٣ - الحلة السيراء ، ١/ ٢٧٥ .
٤ - ديوان ابن دراج ، ص٢٤٩ .

ويقول في قصيدة يهنيء المنصور في عيد الأضحى[1] :

هممٌ لهُ من فَخْـرِ يَعْـرُبَ في العُـلَا ذُرى كلِّ سامي السَّبْك راسِي القواعِدِ

تلك الروح القومية التي نجدها عند ابن دراج ، نجدها أيضاً عند ابن حمد يس الصقلّي . وقد وُلد هذا الشاعر في مدينة سرقوسة سنة ٤٤٧هـ = ١٠٥٥م ، من أصل عربي أزدي ، ثم هاجر في ريعان شبابه إلى الأندلس ، وأقام بأشبيلية يستمتع بجمال منتزهاتها ، ولكنه لم ينسَ وطنه الأم أبداً . وعندما تعرضت صقلية لخطر الغزو النورماني ، أخذ في إنشاء القصائد التي يحثّ فيها قومه على الاتحاد والجهاد ينبعث منها حس قومي ، مثلما وجدنا في قصائد ابن دراج . فالصراع بين المسلمين والنصارى ، وإن كان يحمل طابعاً دينياً ، إلّا أنّه في حقيقته صراع بين عرب وعجم ، أو عرب وروم . تلك النـزعـة نحو العروبة لم تتلاشَ أبداً ، ودامت حتى آخر يوم من الوجود العربي في الأندلس . جاء في قصيدة ابن حمديس التي يحرّض فيها بني قومه للدفاع عن الوطن[2] :

بني الثّغرِ لستمْ في الوَغى من بني أمي إذا لم أصُـل بالـعُـرْبِ منكم على الـعُـجـم

دعـوا النومَ إني خائفٌ أنْ تَدوسَكمْ دواهٍ ، وأنتمْ في الأمـاني مع الحُلْم

وكـأسٍ بأُمّ المـوتِ يَسْعى مُديـرُهَا إلى أهـلِ كأسٍ حَثّهـا بابنـةِ الكرم

فَرُدّوا وجـوهَ الخيـلِ نحـو كريهـةٍ مُصرَّحـةٍ في الـرّوم بالنّكـلِ واليُتْم

وابن خفّاجة شاعر الطبيعة في الأندلس ، يدرك أن القضية ، قضية عرب وروم ، فَمِمّا جاء في قصيدته التي يصف فيها حال مدينة بلنسية بعد استرجاعها من أيدي الرّوم[3] .

---

١ - ديوان ابن دراج ، ص٣٤٥ .

٢ - ديوان ابن حمديس الصقلّي ، ص٤١٦ ، أنظر أيضاً : ملامح الشعر الأندلسي ، ص١٨٢ .

٣ - ديوان ابن خفاجة ، ص٢٠٩ .

واقشَـعَ الكُفْـرُ قَسْراً عَن بَلَنْسيَـةٍ فَانْجَـاب عَنْها حِجَابٌ كانَ مُنْسَدِلاَ
وَطَـهّـرَ السّيفُ مِنْهَـا بَلْدَةٍ جُنُبـاً لم يَجزْهَـا غَيْرُ ماءِ السَّيْفِ مُغْتَسَـلاَ
كأَنّـني بعُـلُوجِ الـرُّومِ سَادِرَةً وقَـدْ تَضَعْضَـعَ رُكنُ الكُفْرِ فاستَفَلاَ

على أن الإحساس بالعروبة يبدو صريحاً واضحاً في الرسالة التي بعث بها المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين ، يستحثه فيها على العبور لنجدته من الأذفونش ملك الروم ، فقد جاء فيها : « . . . . كتب المنقطع إلى كريم سلطانها من إشبيلية في غرة جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وأربعمائة وأنّه أيّد الله أمير المؤمنين ونصر به الدين ، فإنّا نحنُ العرب في هذا الأندلس قد تلفت قبائلنا وتفرّق جمعنا ، وتغيّرت أنسابنا بقطع المادة عنّا من صنيعتنا فصرنا فيها شعوباً لا قبائل ، واشتاتاً لا قرابة ولا عشائر ، فقلّ نصرنا وكثر شامتنا وتولّى علينا هذا العدو المجرم اللّعين أذفونش ، وأناخ علينا بطليطلة ووطئها بقدمه ، وأسر المسلمين وأخذ البلاد والقلاع والحصون ، ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحدٍ منّا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه ولو شاؤا لفعلوا إلّا أنّ الهواء والماء منعهم على ذلك ، وقد ساءت الأحوال وانقطعت الآمال وأنت أيّدك الله سيّد حِمير ومليكها»[1] . .

فهل يقال عن ابن عبّاد وقومه أنّهم إسبان ، ينتمون إلى أوروبا أكثر من انتمائهم إلى المشرق . . ؟!

إن عبدالله بن أحمد بن جهور ، من أَئِمّة أهل الفقه في إشبيلية خلال القرن السادس الهجري ، يعبّر عن عروبته في قصيدة يمدح بها المسلمين بعد موقعة الزلّاقة ، فقد قال[2] :

---

١ - أنظر : بنو عباد بإشبيلية ، ص١٦٥ .
٢ - الحلّة السيراء ، ٢/١٠١ .

لم تَعلمِ العجُم إذ جاءت مصمّمةً يومَ العَـروبـةِ إنّ اليـومَ للعـربِ

فمن يصدر عنه مثل هذا الإحساس بالعروبة ، لا يمكن أن يكون إسبانياً أو من الجنس الأوروبي .

وقد كتب القاضي أبو الحسن بن أضحي إلى الأمير عبدالله بعد انتصاره على ابن رذمير في سرقسطة يقول : [1]

والعَـربُ تَرفلُ فوقَ الغربِ سابحَةً كالأسـدِ ليس لَها إلّا القَنَـا ظفـر

لم يكن سكان البلاد الأصليين ، بالنّسبة للأندلسيين ، سِوَى نصارى ، كفاراً ، مشركين ، افرنج . وفي المقابل نرى : عَرَباً ، حِميريين ، مسلمين . . .

جاء في قصيدة البصري التي مدح بها أمير المؤمنين يوسف بن عبدالمؤمن [2] :

ألاَ لَيْتَ شعـري هل يمدّ لي المدى فأُبْصرُ شمـلَ المشركـين طريـدا
وهل بعدُ يقضي في النّصارى بنصرةٍ تغـادرهم للمُـرْهفَـاتِ حَصِيـدا
ويغـزو أبـو يعقوبَ في شنتَ ياقب يُعيـدُ عميـدَ الكـافـرينَ عميـدا
ويلقي على إفـرنجهم عبءَ كلكـل فيـتركـهـم فوقَ الـصّـعـيـد جُودا

وقال بعض الشعراء يذكر تسلّط ملك قشتالة على العرب [3] :

الـرومُ تَضْرِبُ في البـلادِ وتـغنمُ والـعُـرْب تأخـذُ ما بَقِـيَ المَغْـرَمُ
والمـالُ يُوردُ كلُّهُ قشـتـالـةً فالـلّه يلطف بالـعِبَـاد ويـرحَـمُ

والمصـادر غنية جدّاً بالإشـارات والملاحـظات التي تؤكّـد عروبـة أهـل

١ - قلائد العقبان ، ص٢١٩ .
٢ - نفح الطيب ، ٤/٤٧٨ .
٣ - الروض المعطار ، ص١٦١ .

الأندلس ؛ ومن جملة الملاحظات التي نعثر عليها ؛ أنّ ابن سعيد الأندلسي قال[1] :

«يقال لنساء غرناطة المشهورات بالحسب والجلالة «العربيات» لمحافظتهن على المعاني العربية . . » .

وعندما يصف ابن الخطيب أهل مملكة غرناطة ، يقول[2] : أحوال هذا القطر في الدِّين وإصلاح العقائد ، أحوال سَنِيَّة . . . وألسِنَتُهم فصيحة عربيّة ، يَتَخَلَّلُها غَرْبٌ كثير ، وتغْلِب عليهم الإمالة ؛ وأخلاقُهم أبيّة في معاني المُنازعات ؛ وأنسابهم عربيَّة ؛ . . .

وأنسابُهم حسبما يظهر من الإشراعات ، والبَيْعات السلطانية والإجازات ، عربيّةٌ ؛ يكثر فيها القُرَشي ، والفِهْري ، والأُمَوي . . وكفى بهذا شاهداً على الأصالة . . ودليلاً على العروبيّة» .

ونحن نقول بدورنا ، وكفى بهذا شاهداً على الأصالة ، ودليلاً على العروبية . فأيّ إحساس بالعروبة أقوى من هذا . . . ؟

ونحب في النهاية أن نتوقف عند نقطة هامة ومفيدة نستوضح من خلالها المفهوم الذي يتضمنه مصطلح «العروبة» عند الأندلسيين . وتحقيقاً لذلك نرى أنه لابدّ من التذكير أن فكرة القوميات والأوطان ، كما نفهمها اليوم ، لم تكن قد ظهرت في تلك العصور . فصراع الأمم كان يتلخص في اقتتال الملوك من أجل العروش واستلاب الممتلكات عن طريق التوسع في الأراضي ، وكان مصير الشعوب يحدّده الملك الغالب . وقد اشتملت إسبانيا نفسها قبل دخول المسلمين

---

١ - نفح الطيب ، ٤/٢٨٩ .

٢ - الإحاطة ، الجزء الأول ، ص١٤٠ .

على أكثر من مملكة ، مثل : مملكة ليون ، ومملكة نافارا ، ومملكة غاليثيا ، ومملكة قشتالة وغيرها من الممالك ، عاش ملوكها في نزاع مستمر من أجل السيادة ، ولم يكن للسكـان المـواطنين رأي أو اعتبار . ومن هنا ندرك سبب تسميتنا دخول المسلمين إلى الأندلس «فتحاً» . فالشعب النصراني أخذ لأول مرَّة يتذوق معنى العدالة واحترام الإنسان .

وبعـد أن انتهى إلينـا الأمـر وأردنا تحديد هوية المجتمع الأندلسي ، أراد الإسبان جعل الأندلسيين إسباناً أوروبيين . ورفضنا نحن ذلك . وسعينا في هذا البحث للتعـرف على موقف الأنـدلسيين أنفسهم من هذا المـوضوع . فوجدنا العـروبة عندهم تتجلى في مظاهر ثلاثة : الدموي ، الثقافي أو اللغة المنطوقة ، الحسي أو الشعوري .

فبالنسبة للأول : فقد بدا لنا واضحاً من خلال أشعارهم . وهو أيضاً أكثر وضوحاً في عبارة المعتمد إلى الأمير يوسف ابن تاشفين : فإنا نحن العرب في هذا الأندلس» . وفي عبارة ابن الخطيب كذلك ، عند وصفه لأهل الأندلس في عصر مملكة غرناطة ، حيث قال : «. . . . وكفى بهذا شاهداً على الأصالة ، ودليلاً على العروبية» .

وبالنسبة للمظهر الثاني : فلم نعرف مثل الأندلسيين أشدّ حرصاً وتمسكاً بلغة دينهم وحفاظهم عليها حتى في أشد المحن عندما كانوا يتعرضون لطغيان محاكم التفتيش بعد سقوط الأندلس ، وأدب «الخميادو» شاهد عظيم على ذلك .

أما بالنسبة للمظهر الثالث : فقد ظل شعور الأندلسيين بالولاء إلى المشرق قائماً حتى آخر يوم لهم في تلك الجزيرة . وكان المشرق يبعث فيهم روح العزة والأصالة .

أما عن وجود عناصر غير عربية تشكل غالبية السكان ، كالبربر والنصارى

والمولّدين . فقد أبدينا رأينا بكل وضوح ، وقلنا إننا ننظر إلى عروبة الأندلس من خلال العنصرالبشري الـذي كان له الإسهـام الفعّال والحقيقي في وجود تلك الحضارة وصبغها بالصبغة العربية . والذين ننعتهم أنهم كانوا يشكلون الأكثرية فإن مشاركتهم في تلك الحضارة اقتصرت على بروز عدد ضئيل من الأسماء فقط .

وفيما يتعلق بالإشارات التي ترد في بعض الكتب عن معرفة الأندلسيين أو قضاة قرطبة لِلّغة «الرومانثية» أو عجمية أهل الأندلس ، وهي «اللطينية» . كما نجد في كتاب الخشنى وغيره . . ، فإن تلك المعلومات تؤكد حقيقة هامة ، أعني بها روح العدالة التي كان يتمسك بها القضاة المسلمون . فحين كان يَمثُل أمامهم رجـلاً نصرانياً لا يجيد العـربية ، كانـوا لا يجدون غضاضة من مخاطبته بلغته القشتـالية وإذا كان الأمر هكذا ، فلا ينبغي أن يُفسّر ذلك بأنّ القضاة تركوا لغتهم العربية وأصبحوا لا يتكلمون غير اللطينية . . ؟

وإذا كنا نشير أحياناً ، إلى تعصب الاسبان لقوميتهم ولغتهم ، فَلأن ذلك يظهر في كتاباتهم بشكل فاضح . ومن حقّنا حين نترجم أبحاثهم أن نشير إلى ذلك .

وأخيراً ، فإننا لا نريد في بحثنا هذا غير الفائدة .

والله سبحانه من وراء القصد

المصادر والمراجع :

أولاً : باللغة العربية

١ - الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق ، محمد عبدالله عنان ، المجلد الأول ، دار المعارف بمصر .

٢ - بنو عباد بإشبيلية ، عبدالسلام أحمد الصور ، مطبعة كريماديس ١٩٤٩ .

٣ - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، للمراكشي ، تحقيق ج . س . كولان وليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٠ .

٤ - تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، الدكتور احسان عباس ، دار الثقافة - بيروت .

٥ - تاريخ آداب العرب ، مصطفى صادق الرافعي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٧٤ .

٦ - تاريخ الفكر الأندلسي ، أنخل غونثالث بالنثيا ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

٧ - الجديد في فن التوشيح ، الدكتور عدنان مصطفى ، دار الثقافة ، الدوحة ١٩٨٦ .

٨ - جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون دار المعارف ، الطبعة الرابعة .

٩ - الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلية ، الأمير شكيب أرسلان ، دار الحياة - بيروت .

١٠ - الحلّة السيراء ، لابن الأبّار الفضاعي ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

١١ - ديوان ابن حمديس ، صحّحه وقدم له الدكتور إحسان عباس ، دار صادر - بيروت ، ١٩٦٠ .

١٢ - ديوان ابن خفـاجـة ، تحقيق الـدكتـور السيد مصـطفى غازي ، الأسكندرية ، ١٩٦٠ .
١٣ - ديوان ابن دراج القسطلي ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، المكتب الإسلامي ، ١٣٨٩ .
١٤ - الـذخيرة في محاسن أهلالجزيرة ، لابن بسام ، تحقيق احسان عباس ، الدار العربية للكتاب ١٩٨١ .
١٥ - صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار ، للحميري ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧ .
١٦ - قلائد العقبان ومحاسن الأعيان ، لابن خاقان ، مكتبة بولاق -القاهرة ، ١٢٨٤هـ .
١٧ - ملامح الشعر الأندلسي ، الدكتور عمر الدقاق ، دار الشرق - بيروت ، ١٩٧٥ .
١٨ - نثير فرائد الجمان ، لابن الأحمر ، دراسة وتحقيق ، محمد رضوان الدابة ، دار الثقافة - بيروت ١٩٦٧ .
١٩ - نفح الطيب ، للمقري ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر - بيروت ، ١٩٦٨ .

ثانياً : باللغة الأجنبية :

1. Actas I. Congreso, Historia de Andalucía, Diciembre 1976. Andalucí Medieval Tomo I

2. La Civilizacion hispano - árabe, Titus Burokherdt. version espanol de Rosa Kuhne Barbat.

1. Actas I. Congreso, Historia de Andalucía, Diciembre 1976. Andalucía Medieval Tomo I

2. La Civilizacion hispano - árabe, Titus Burokherdt. version espanol de Rosa Kuhne Barbat.

3. Historia de la arquitectura espanol - edad antigua - edad media. Fernando Chueca, Madrid 1965.

4. Historia de los jueces de Córdoba, p. 184, j. Ribera.

5. Historia de los Mosárabe de Espana, Madrid, 1897, Francisco Javier simonet.

6. Iglesias mosárabes, arte espanol desde los siglos IX hasta el XI. Madrid 119, Manuel Gómez Moreno.

7. Introduccion a la historia de Espano Ubiento - Reglo, jover - seco. Barcelona 1972.

8. Los Mosárabes de Toledo en los siglos XII y XIII. Angel Gonzales Palencia.

9. Sobre los Iberos y su lengua, Madrid 1952. M. Gomez Moreno.